منهج القرآن الكريم
في توجيه الأمة إلى التوبة

د. محب الدين بن عبد السبحان واعظ
الأستاذ المشارك بقسم الكتاب والسنة
جامعة أم القرى

الحمد لله فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، خالق الإنس والجان، مالك يوم الدين، قابل التوب شديد العقاب، ذي الطول، لا إله هو، إليه المصير.

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله وخليله وصفيه من خلقه محمد بن عبد الله الذي كان دائم الاتصال برب العالمين منيبا إليه وتائبا، وقد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو القائل أفلا أكون عبدا شكورا، صلى الله تعالى عليه صلاة دائمة متصلة إلى يوم البعث والنشور، وعلى آله وأهل بيته وذريته الطيبين الطاهرين، وصحابته المخلصين لهذا الدين القويم، وورثته من أهل العلم بشرعه المبين، ومن سار على نهجهم واقتفى إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الله تعالى خلق البشر وجعله خليفة في الأرض وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، وأسكن أبا البشر وزوجه جنة الخلد تفضلا منه وإحسانا، فما طال مقامهما إلا كان الشيطان وراءهما بوسائسه، ودلاهما بغرور، حتى ظلما أنفسهما، فأنابا إليه وتاب الله عليهما (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه أنه هو التواب الرحيم [1].

ولقد صف الله سبحانه وتعالى نفسه بصفاته العليا، وهو أعلم به، وأنه قابل توبة العباد ويغفر ذنوبهم، فقال – جل وعلا – ﴿وأنا التواب الرحيم﴾[2]

وقد اقترنت صفة التوبة مع صفة الرحمة في كثير من آيات القرآن الكريم، إلا في آية النور فقد اقترنت فيها صفة التوبة مع صفة الحكمة[3]، وأفردت صفة التوبة في سورة النصر فقط فقال: ﴿إنه كان توابا﴾[4]

وقد قرن الله تعالى صفة التوبة مع الرحمة في توجيه المؤمنين لطلب المغفرة من الله تعالى بعد ظلمهم أنفسهم ومجيئهم لرسول الله ﷺ واستغفار الرسول لهم فقال: ﴿لوجدوا الله توابا رحيما﴾[5]

وعندما وجه – الباري جل شأنه – الوصايا النافعة لضمان المجتمع من الانهيار وحمايته من الاختلال، وقد نهاهم عن السخرية واللمز والنبز والظن والتجسس والغيبة، ثم أمرهم بالتقوى فوصف نفسه فقال: ﴿إن الله تواب رحيم﴾[6]

وموسى الكليم – صلوات ربي وسلامه عليه – حينما وجه قومه إلى التوبة بعد أن اتخذوا العجل وظلموا أنفسهم، وصف ربه بأنه هو التواب الرحيم[7].

وكذا إبراهيم الخليل – صلوات ربي وسلامه عليه – حينما دعا ربه بأن يتوب عليه، وصفه كذلك بهاتين الصفتين فقال: ﴿إنك أنت التواب الرحيم﴾[8].

هكذا وردت صفة التوبة بانفراد مرة، وكثيرا مقترنة بصفات أخرى مثل الرحيم والحكيم – سبحانه وتعالى –.

فكرة البحث:

لقد أثنى الله تعالى على الابن البار الصالح، الذي بلغ الأربعين من العمر، والذي ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[9].

فهذا الابن يطلب من الله تعالى الالهام لشكر نعمته التي أنعم بها عليه وعلى والديه، ويوفقه للعمل الصالح الذي يرضيه، ويجعل ذريته من الصالحين، ثم يلتجأ إليه تائبا من جميع الذنوب بقوله: ﴿إني تبت إليك وإني من المسلمين﴾ فمن كان كذلك فهو من الأبناء البررة، الذين قال عنهم الباري جل شأنه ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾[10] فقول هذا الابن البار – كما جاء في الآية الكريمة السابقة – يتضمن طلبا وتوجها، طلبا من الله تعالى يشتمل على طلب الإلهام للشكر، والتوفيق للعمل الصالح، وإصلاح الذرية، وتوجها منه إليه تعالى بالتوبة والإسلام له.

وقد كنت أردد هذه الآية مرارا بين الحين والآخر، أعمل الفكر فيها بإمعان، أملا في الشمول مع من يتقبل منهم الله التوابُ الرحيم، التوبةَ والعمل، وقد قيل: زكاةُ العلم

العملُ، فلابد من التوبة ومن الامتثال والعمل، ثم بدا لي أن أقف على منهج القرآن الكريم والخطوات المودعة فيه، لعل الله تعالى أن يوفقني وأمثالي من المقصرين للتوبة، لأن الإنسان كثير الوقوع في الخطأ، وفي الحديث "كل ابن آدم خطّاء، فخير الخطائين التوابون"[11].

قال الأمير الصنعاني: والحديث دال على أنه لا يخلو من الخطيئة إنسان، لما جبل عليه هذا النوع من الضعف، وعدم الانقياد لمولاه، في فعل ما إليه دعاه، وترك ما عنه نهاه، ولكنه تعالى بلطفه فتح باب التوبة لعباده، وأخبر أن خير الخطائين التوابون المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ[12].

وقال الرسول ﷺ: "والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم"[13].

حدود البحث وخطوات منهجه:

هذا البحث يتضمن بيان الخطوات المستخلصة من القرآن الكريم في عرض التوبة، للمؤمنين حتى يهتدوا إليها، وركزت في الدراسة على من وردت توبتهم بلفظ صريح، دون من يفهم توبتهم من سياق الآية أو سباقها، لأن الغرض من البحث هو بيان منهج القرآن في توجيه الأمة إلى التوبة.

وسرت في البحث حسب الخطوات التالية:

جمعت الآيات التي تتحدث عن التوبة والتائبين وعاقبتهم ونحو ذلك.

صنفتها حسبما تدل عليه الآيات من معنى وتوجيه وفائدة.

اخترت الآيات التي تنبئ عن منهج وطريق وخطوات.

رجعت إلى كتب التفاسير المعتمدة بالمأثور والدراية.

ذكرت ما تدل عليه الآيات من معنى وبيان وتوضيح.

رتبت الخطوات التي تدل المنهج حسب اجتهادي الشخصي كما تراه في ثنايا البحث.

الهدف من البحث:

بيان هداية القرآن الكريم، وأنه يتضمن ما يصلح الأمة في العاجل والآجل.

بيان منهج القرآن الكريم في عرض التوبة، من حيث الأمر والحث، والثناء والعاقبة، والذين لا تقبل توبتهم.

عرض هذا المنهج بأسلوب مبسط وواضح.

تذكير المجتمع وتنبيهه للرجوع إلى الله تعالى عن الذنوب بالتوبة النصوح.

هذا وقد كانت فقرات البحث كالتالي:

المقدمة / معنى التوبة لغة وشرعا / معاني توبة الله على عباده / توبة العباد إلى الله تعالى / أمر الله تعالى عباده بالتوبة / الحث على التوبة/ ثناء الله تعالى على التائبين / دعاء حملة العرش ومن حوله للتائبين / دعـــــوة الأنبياء أقوامهم إلى التوبة / وقت التوبة / قبول الله تعالى توبة عباده / ثمرات التوبة / عاقبة الذين لم يتوبوا/ الذين لا تقبل توبتهم، ثم الخاتمة، والفهارس.

هذا وأسأل الله التواب الرحيم دوام التوفيق للرجوع إليه منيبا تائبا، إنه سميع مجيب، والشكر له أولا وآخرا ظاهرا وباطنا، وأسأله التوفيق للعمل الصالح المرضي، وصلاح الأهل والأولاد والذرية، ويغفر لي ولوالدي والمسلمين أجمع، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

معنى التوبة

التوبة في اللغة: كلمة أصلها مكونة من التاء والواو والباء، وهي تدل على الرجوع[14].

والتوبة في الشرع: الرجوع من الذنب، وتاب إلى الله يتوب توبا وتوبة ومتابا: آناب، ورجع عن المعصية إلى الطاعة، ورجل تواب: تائب إلى الله، والله تواب: يتوب على عبده.

قال أبو منصور: أصل تاب إلى الله ورجع وأناب، وتاب الله عليه: أي عاد عليه بالمغفرة[15].

قال الراغب الأصفهاني: والتوبة في الشرع: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة[16].

وقال الطبري: التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم فيه على ترك السمعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك السمعاودة[17].

معاني توبة الله على عباده

سبحان الكريم التواب. الرحمن الرحيم بعباده. العليم الخبير بأفعالهم وأقوالهم. لا تخفى عليه خافية. يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. فسبحان الذي كلف العباد بالعبادة. بل تحمل الإنسان الأمانة ﴿إنه كان ظلوما جهولا﴾[17] لكن رزقهم التوبة من الخطايا والإنابة إلى الله وإلى طاعته مما يكره من معصيته. وقبل منهم توبتهم.

فتوبة الله على عبده: لها معنيان:

الأول: أن يرزقهم الله تعالى التوبة إليه. وجعلهم من أهل الإياب إلى طاعته والإنابة إلى مرضاته. ويهديهم إليه بلطف منه لهم ليتوبوا ويرجعوا عما هم عليه من معاصي وخلاف أمر الله عز وجل. وقد قال ابن منظور: وتاب الله عليه: وفقه لها[18]. فهناك الكثير من الآيات التي تدل على ذلك.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[20] قال السعدي: (ويتوب عليكم) أي يوفقكم للتوبة عما كنتم عليه من الخلاف[21].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[22] يقول الطبري: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدا ﷺ. والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام. وأنصار رسوله في الله. الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم. من النفقة والظهر والزاد والماء. منْ بعد ما كاد يزيغُ قُلوبُ فريق منْهُمْ عن الحقّ ويشكّ في دينه ويرتاب بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه. ثُمّ تاب عليْهِمْ يقول: ثم رزقهم جلّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه وإبصار الحقّ الذي كان قد كاد يلتبس عليهم[23].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[24] قال البيضاوي: (ثُمّ تاب عليْهِمْ) بالتوفيق للتوبة. (لِيَتُوبُوا) أو أنزل قبول توبتهم ليعدوا من جملة التائبين. أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم (إنّ اللّه هُوَ التّوّابُ) لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة (الرّحِيم) المتفضل عليهم بالعفو[25].

وقال تعالى: ﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾[26]

أي: ثم رزقهم التوبة. وهديتهم بلطف مني لهم. حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصيّ وخلاف أمري. والعمل بما أكرهه منهم إلى العمل بما أحبه. والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي[27].

وقال تعالى: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾[28]

يقول تعالى ذكره: ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه من بعد عذابه الذي به عذّب من هلك منهم. قتلاً بالسيف. ويتوب الله على من يشاء من الأحياء. يقبل به إلى طاعته والله غفورٌ للذنوب من أناب وتاب إليه منهم ومن غيرهم منها. رحيمٌ بهم فلا يعذبهم بعد توبتهم. ولا يؤاخذهم بها بعد إنابتهم[29].

الثاني: قبول توبة العبد. وأن يتوب من غضبه عليه إلى الرضا عنه. ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه[30] قال تعالى: ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾[31] وقد قال ابن منظور: وتاب الله عليه: عاد عليه بالمغفرة. والله تواب: يتوب على عبده[32]. والكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن توبة الله على عباده بهذا المعنى.

قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾[33]

وقوله: (فتاب عليكم) أي قبل توبتكم. قال ابن جرير: رجع لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم. وعظيم ما ركبتم. والصفح عن جرمكم (إنه هو التواب الرحيم) يعني الراجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه. العائد إليه برحمته المتنحية من عقوبته[34].

وقال تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾[35].

أي: من تاب ممن صدر منهم الظلم كالسرقة ونحوها. فإن الله يتوب عليه. أي: يقبل توبته. يقول الطبري: فإن الله – جلّ وعزّ – يرجعه إلى ما يحبّ ويرضى عما يكرهه ويسخط من معصيته. إن الله غفور رحيم. ساترٌ على من تاب وأناب عن معاصيه إلى

طاعته ذنوبه بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة وتركه فضيحته بها على رؤوس الأشهاد. رحيم به وبعباده التائبين إليه من ذنوبهم[36].

معنى توبة العباد إلى الله تعالى

وتوبة العبد إلى ربه: إنابته إلى طاعته. وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيما مما يكرهه ربه[37]. وأصل تاب: عاد إلى الله ورجع وآناب[38]. ويخبرنا الله – سبحانه وتعالى – في محكم التنزيل عن الذين تابوا . وأنابوا إلى الله تعالى من أنبيائه وعباده الصالحين. واقتصر في هذا البحث على من وردت عنهم التوبة بلفظ صريح. دون من يفهم توبتهم من سياق الكلام أو سياقه. مثل آدم وداوود ويونس – عليهم الصلاة والسلام – فقال تعالى عن توبة موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ولمّا جاء مُوسىٰ لميقاتنا وكلّمهُ ربُّهُ قال ربِّ أرني أنظُرْ إليْك قال لن تراني ولـٰكن انظُرْ إلى الْجبل فإن استقرّ مكانهُ فسوْف تراني فلمّا تجلّىٰ ربُّهُ للْجبل جعلهُ دكّا وخرّ موسى صعقاً فلمّآ أفاق قال سُبْحانك تُبْتُ إليْك وأنا أوّلُ الْمُؤْمنين﴾[39].

قال الألوسي: (ولمّا جاء مُوسىٰ لميقـٰتنا) أي لوقتنا الذي وقتناه أي لتمام الأربعين (قالَ ربِّ أرنى) أي ذاتك أو نفسك. قال رب العزة وجلال (لن تراني) أي لا قابلية لك لرؤيتي وأنت على ما أنت عليه (ولـٰكن انْظُرْ إلى الْجبل) أي طور سيناء (فإن استقرّ مكانهُ) ولم يفتته التجلي (فسوْف تراني) إذا تجليت لك. (فلمّا تجلّىٰ ربُّهُ للْجبل) أي ظهر له على الوجه اللائق بجنابه تعالى بعد جعله مدركاً لذلك (جعلهُ دكّا) أي مدكوكاً متفتتاً. (وخرّ موسىٰ) أي سقط من هول ما رأى (صعقًا) أي صاعقا وصائحا من الصعقة. والمراد أنه سقط مغشياً عليه. (فلمّا أفاق) بأن عاد إلى ما كان عليه قبل. وذلك بعود الفهم والحس ورجوع العقل والفهم إليه بعد ذهابهما عنه (قالَ) تعظيماً لأمر الله سبحانه (سُبْحـٰنك) أي تنزيهاً لك من مشابهة خلقك في شيء. أو من أن يثبت أحد لرؤيتك على ما كان عليه قبلها. أو من أن أسألك شيئاً بغير إذن منك (تُبْتُ إليْك) من الأقدام على السؤال بغير أذن (وأنَا أوّلُ الْمُؤْمنين) بعظمتك وجلالك. أو بأنه لا يراك أحد في هذه النشأة[40].

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: فلما تاب إلى موسى عليه السلام فهمه من غشيته. وذلك هو الإفاقة من الصعقة التي خرّ لها موسى ﷺقال: سُبْحانك تنزيها لك يا ربّ وتبرئة أن يراك أحد في الدنيا ثم يعيش. تُبْتُ إلَيْكَ من مسألتي إياك ما

سألتك من الرؤية. وأنا أوّلُ المؤمنين بك من قومي أن لا يراك في الدنيا أحد إلا هلك[41].

هذا.. ويذكرنا القرآن الكريم بتوبة من بلغ الأربعين من الإنسان فيقول: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمّه كرْها ووضعته كرْها وحمْله وفصالُه ثلاثون شهْرا حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوْزعْني أنْ أشكُر نعْمتك الّتي أنعمْت عليّ وعلى والديّ وأنْ أعْمل صالحا ترْضاهُ وأصْلحْ لي في ذُرّيّتي إنّي تُبْتُ إليْك وإنّي من المُسْلمين﴾[42].

يقول الله – تعالى ذكره – مخبرا عن قيل هذا الإنسان: إني تُبْتُ إليْك. تبت من ذنوبي التي سلفت مني في سالف أيامي إليك، وإني من المُسلمين. ومن الخاضعين لك بالطاعة، المستسلمين لأمرك ونهيك. المنقادين لحكمك[43].

وقال ابن كثير: وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها. وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود – رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد (اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام ونجنا من الظلمات إلى النور وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتمها علينا[44]

ثم ذكر الله تعالى في الآية الكريمة التالية عاقبتهم الحسنى، بقبول العمل الحسن، وتكفير السيئات، وإدخالهم الجنة. فهؤلاء المتصفون بما ذكر في الآية الأولى، التائبون إلى الله تعالى المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل. ونتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿وعْد الصّدْق الّذي كانُوا يُوعدُون﴾[45].

أمر الله تعالى عباده بالتوبة

خلق الله تعالى الإنسان وجعل فيه النفس المتقلبة من حال إلى حال، المتقلبة حسب البيئات وتقلبات الزمن، فلا تثبت على طريقة ولا تستقر على سبيل إلا من رحم، لذا أرسل الله تعالى الرسل الكرام هداية الناس إلى الطريق المستقيم، ولأنه تعالى يعلم من عباده الانحراف وحدوث الزلل والوقوع في الخلل، فوجههم إلى الطريق الأقوم، في مثل هذه

الأحوال. وبين لهم بأن التوبة هي المنجاة وفيها السلامة والنجاة. فأمرهم الله – عز وجل – بالتوبة في آيات عديدة من كتابه الكريم. في آيات من سور مكية ومدنية. ولا يخفى بان الأمر بالتوبة من أهم الأوامر الإسلامية.

فبين الله تعالى في الآيات المبدوءة بها سورة هود المكية. بأنه – سبحانه وتعالى – أحكم الآيات القرآنية من الدّخل والخلل والباطل. ثم فصلها بالأمر والنهي . بأن لا يعبد البشر إلا الله وحده لا شريك له ويخلعوا الآلهة والأنداد. وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يقول للناس: إنني لكم من عند الله نذير. أنذركم عقابه على معاصيه وعبادة الأصنام. وبشير أبشركم بالجزيل من الثواب على طاعته وإخلاص العبادة والألوهة له.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[46]

يأمر الله تعالى ذكره عباده أن يستغفروا ربّهم وأن يعملوا من الأعمال ما يرضي الرب عز وجل. ثُمَّ يتوبوا إليه بإخلاص العبادة له دون ما سواه من سائر ما يعبدون من دونه [47]

وأمره تعالى عباده بالتوبة في الآيات المدنية أصرح. وهم إليها أحوج: لأن العبد المؤمن مهما جد واجتهد. ومهما امتثل واعتدل. لا يخلو حاله عن سهو ونسيان. وتقصير في أوامره واقتراف لنواهيه. وانزلاق في ارتكاب المحرمات. أو التعدي على الآخرين. أو يقع في غيبة أو نميمة أو حسد وحقد. وما شابه ذلك. لذا أمر الله – عز وجل – المؤمنين جميعاً بالتوبة وأملهم بالفلاح إذا تابوا. قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[48].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ أمْر. ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة. وأنها فرض متعيّن: والمعنى: وتوبوا إلى الله فإنكم لا تخلون من سهو وتقصير في أداء حقوق الله تعالى. فلا تتركوا التوبة في كل حال[49].

وقد ابتدأت هذه الآية بالخطاب للنبي ﷺ ليوجه أمته إلى الفضائل الاجتماعية. بامتثال الأوامر واجتناب النواهي الواردة في الآية الكريمة. ولكنها ختمت بخطاب الله – عز وجل – المؤمنين ليتوبوا إلى ربهم. قال الألوسي: وتلوين الخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ إلى الكل بطريق التغليب، لإبراز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة. وأنها من معظمات المهمات الحقيقية . بأن يكون – سبحانه وتعالى – الآمر بها. لما أنه لا يكاد يخلو أحد من

المكلفين عن نوع تفريط في إقامة مواجب التكاليف كما ينبغي . لا سيما في الكف عن الشهوات.

وقال أيضا: وفي تكرير الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد للإيجاب وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال حتما[50]. أي: إن كنتم مؤمنين امتثلوا أمر ربكم وتوبوا إليه عما أنتم فيه من الذنوب والمعاصي. أو المكروات. أو الانحراف عن جادة الطريق ومنهج الله تعالى.

وقال النعالبي: والتوبةُ فرْضٌ على كلّ مسلم. وهي الندمُ على التفريط في المعصية. والعزْمُ على تركْ مثلها في المستقبل[51].

وقال القرطبي: وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان[52].

وقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[53] أي توبة بالغة في النصح. بل تنصح صاحبها بترك العود إلى ما تاب عنه[54].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله. تُوبُوا إلى اللّه: أي ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله. وإلى ما يرضيه عنكم. تَوْبَةً نَصُوحا. رجوعا لا تعودون فيها أبدا[55].

وقال الشيخ ابن عاشور: أمر المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأن ذلك من إصلاح أنفسهم. بعد أن أمروا بأن يُجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزجّ بهم في عذاب النار. لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها. وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهُدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم[56].

وقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾[57] قال الفراء: هذا أمر بلفظ الاستفهام: كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ مُّنتَهُونَ﴾[58] أي: انتهوا. والمعنى: أن الله يأمركم بالتوبة والاستغفار من هذا الذنب العظيم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[59].

قال ابن كثير: وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم. وهذا الافتراء والكذب والإفك. يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. فكل من تاب إليه تاب عليه[60].

قال الألوسي: والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ للإنكار. وفيه تعجيب من إصرارهم – أي النصارى – أو عدم مبادرتهم إلى التوبة. والفاء للعطف

على مقدر يقتضيه المقام، أي ألا ينتهون عن تلك العقائد الزائغة والأقوال الباطلة فلا يتوبون إلى الله تعالى الحق ويستغفرونه بتوبيخه تعالى عما نسبوه إليه عز وجل، أو يسمعون هذه الشهادات المكررة والتشديدات المقررة فلا يتوبون عقيب ذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا [61].

الحث على التوبة

القرآن الكريم كلام رب العالمين، يعلم ما يصلح البشر ويرشدهم، ويعلم خبايا صدورهم، ومكنون قلوبهم. إذ أمر المؤمنين بالتوبة إلى الله تعالى من ذنوبهم، بل هناك آيات أخرى تحثهم على التوبة عليهم يستقيموا على الجادة، فيمتثلوا ويعملوا بتوجيهات ربهم وخالقهم.

قال تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صـــلحاً فإنَّهُ يتوبُ إلى ٱللَّه متاباً﴾[62]

يحث الله – سبحانه وتعالى – المؤمنين إلى التوبة والعمل الصالح في الآية، فمن تاب عن المعاصي التي فعلها بتركها بالكلية والندم عليها وعمل صـــلحاً يتلافى به ما فرط منه.

أو: ومن خرج عن جنس المعاصي وإن لم يفعله ودخل في الطاعات فإنَّهُ يتوبُ إلى ٱللَّه. ويرجع إليه سبحانه بذلك متاباً أي رجوعاً عظيم الشأن مرضياً عنده تعالى. ماحيا للعقاب محصلاً للثواب.

أو: فإنه يتوب إلى الله تعالى ذي اللطف الواسع الذي يحب التائبين ويصطنع إليهم.

أو: فإنه يرجع إلى الله تعالى، أو إلى ثوابه سبحانه مرجعاً حسناً[63].

هذا.. وفي الآيات التي نزلت في حفصة وعائشة – رضي الله عنهما – بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[64] حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ، فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا: أي زاغت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره النبيّ ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل. وكان عليه السلام يحبّ العسل والنساء[65].

هذا .. وفي ذكر الله تعالى جزاء الذين يدعون مع الله إلها آخر ويقترفون أنواعا من الذنوب والمعاصي والاعتداء على الآخرين، وأنهم يخلدون في العذاب، ثم التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَـــلِحاً فَأُوْلَـــئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ

حسنت﴾[66] حث على التوبة. بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم. أو يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة. وقيل بأن يوفقه لأضداد ما سلف منه، أو بأن يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وكان اللّٰه غفورا رحيما. فلذلك يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات[67].

ثناء الله تعالى على التائبين

وصف الله عز وجل عباده المؤمنين بصفات حميدة أحرى بهم أن يتحلوا بها. لأنه تعالى بشرهم بالفوز العظيم. فقال: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[68]

هذه الصفات نعوت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة (التائبون) عن الذنوب كلها. التاركون للفواحش[69]. التائبون الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله[70] ثم ختم الآية بالبشرى للمؤمنين المتصفين بهذه الخلال المبدوءة بالتوبة.

وفي ذكر الله تعالى صفات الزوجات اللاتي يبدل الله تعالى رسوله الكريم ﷺ إن طلق أزواجه. بقوله: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾[71] دليل على اتصاف بهذه الصفة الجليلة (التوبة) فقوله (تائبات) راجعات إلى ما يحبه الله منهن من طاعته عما يكرهه منهن[72]، أو راجعات إلى أمر رسول الله ﷺتاركات لحاب أنفسهن[73].

وفي قول الله تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا﴾[74] ثناء وبيان للمكانة العالية للتائبين. فمن تاب عن المعاصي بتركها والندم عليها. وعمل صالحا يتلافى به ما فرط. أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعة. فإنه يتوب إلى الله ويرجع إليه بذلك. متابا مرضيا عند الله. ماحيا للعقاب محصلا للثواب[75].

والله – سبحانه وتعالى – يثني على التائبين ويعدهم بالجزاء الحسن. كما أن للتوبة ثمرات سامية محمودة العاقبة. وسيأتي ذكرها آخر البحث.

يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – بالمغفرة لهم. وإدخالهم جنات عدن. والصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وأن يحفظهم من السيئات التي هي السبب الموجبة للعذاب. فما أحرى بالعبد المؤمن أن يتوب إلى الله عز وجل. وما أحوجه إلى دعاء الملائكة المقربين.

دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التوبة

أربعة من الأنبياء الكرام – هود وصالح وشعيب وموسى –صلوات ربي وسلامه عليهم – يوجهون أممهم ويدعوهم إلى التوبة مقدمين الاستغفار مما صدر منهم من ذنوب أو سيئات أو معاصي أو تقصير أو تجاوز أو ظلم. وفي تقديم الاستغفار دليل واضح على أن التوبة لا تأتي إلا بعد اعتراف العبد بتقصيره وذنوبه. فيطلب من العلي الغفار مغفرة ذلك كله. ثم ينيب ويتوب إلى الله تعالى معترفا بعدم العودة إليها. لتكون التوبة نصوحا كما وصفها الباري جل شأنه.

وفي قصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام– عظات وعبر ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[80]

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم. وكيف نجى المؤمنين وأهلكنا الكافرين عِبْرَةٌ لأصحاب العقول. وما كان هذا القرآن أن يفتري ويختلق من دون الله. وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح. وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير. وتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه. وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات. والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات. والإخبار عن الأمور الجلية. وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية. والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات. وتنزهه عن مماثلة المخلوقات. فلهذا كان هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ يهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد. ومن الضلال إلى السداد. ويبتغون به الرحمة من رب العباد. في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد[81].

فهذا هود – عليه الصلاة والسلام – يقول لقومه عاد ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾[82]

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هود لقومه: ويا قوم استغفروا ربكم يقول: آمنوا به حتى يغفر لكم ذنوبكم. والاستغفار: هو الإيمان بالله في هذا الموضع. لأن هودا صلى الله عليه وسلم إنما دعا قومه إلى توحيد الله ليغفر لهم ذنوبهم. كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[83].

وقوله: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يقول: ثم توبوا إلى الله من سالف ذنوبكم وعبادتكم غيره بعد الإيمان به. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا يقول: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به. أرسل قطْر السماء عليكم. يُدِرّ لكم الغيث في وقت حاجتكم إليه. وتحيا بلادكم من الجدب والقحط[84].

وهذا صالح – عليه الصلاة والسلام – المرسل إلى ثمود ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾[85].

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا. فقال لهم يا قوم: اعبدوا الله وحده لا شريك له. وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة. فما لكم من إله غيره يستوجب عليكم العبادة. ولا تجوز الألوهة إلا له. هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وجعلكم عُمّارا فيها. وأسكنكم فيها أيام حياتكم. فَاسْتَغْفِرُوهُ واعملوا عملاً يكون سببا لستر الله عليكم ذنوبكم. وهو الإيمان به وإخلاص العبادة له دون ما سواه واتباع رسوله صالح. ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ واتركوا من الأعمال ما يكرهه ربكم إلى ما يرضاه ويحبه. إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ممن أخلص له العبادة ورغب إليه في التوبة. مجيب له إذا دعاه[86].

وشعيب – عليه الصلاة والسلام – يقول لأصحاب الأيكة ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[87].

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل شعيب لمن أرسل إليهم: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ أيها القوم من ذنوبكم -بينكم وبين ربكم- التي أنتم عليها مقيمون. من عبادة الآلهة والأصنام وبخْس الناس حقوقهم في المكاييل والموازين. ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ وارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ بمن

وآناب إليه أن يعذبه بعد التوبة. وَدُودٌ ذو محبة لمن أناب وتاب إليه يودّه ويحبه[88].

ويقول تعالى عن موسى الكليم – عليه الصلاة والسلام – ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[89]

قال موسى لقومه من بني إسرائيل: يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم بالارتداد واتخاذ العجل ربا بعد فراق موسى إياهم، ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردّهم بالتوبة إليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذي ركبوه، قتلهم أنفسهم. فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى، من التوبة مما ركبوا من ذنوبهم، إلى ربهم على ما أمرهم به. وقوله: (ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ) يعني بذلك توبتكم بقتلكم أنفسكم، وطاعتكم ربكم، خير لكم عند بارئكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثواب منه. وقوله: (فتاب عليكم) أي بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضا. وهذا من المحذوف الذي استغني بالظاهر منه عن المتروك، لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم، فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتبتم فتاب عليكم، فترك ذكر قوله «فتبتم» إذْ كان في قوله: فتاب عليكم دلالة بينة على اقتضاء الكلام فتبتم.

ويعني بقوله: (فتاب عليكم) رجع لكم ربكم إلى ما أحببتم من العفو عن ذنوبكم، وعظيم ما ركبتم، والصفح عن جرمكم. إنه هو التوابُ الرّحيمُ يعني الراجع لمن آناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه. ويعني بالرحيم: العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته[90].

وقت التوبة . ومن الذي يتوب

ورد في القرآن الكريم أربع آيات محكمات يحدد الله – عز وجل – فيها وقت التوبة وأنه الاقلاع من الذنب. فثلاث آيات منها مكية، آية الأعراف ثم الأنعام ثم النحل.

والرابعة مدنية هي آية النساء[91]. فيقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[92].

يقول جلّ ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضا الله بإنابتهم إلى ما يحبّ مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط - من بعد سيىء أعمالهم - وصدّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين وتائب على المنيبين بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك، لغفورٌ لهم، وساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها، رحيم بهم، وبكلّ من كان مثلهم من التائبين[93].

وفي آية الأنعام تحديد لوقت التوبة، إذ يقول البارئ - جل وعلا - ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[94]

قال الطبري: وإذا جاءك يا محمد القوم الذين يصدّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيقرّون بذلك قولاً وعملاً، مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: سلام عليكم؛ أمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها، كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أي: قضى ربكم الرحمة بخلقه، أنّه مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فإنّه غَفُورٌ رَحِيمٌ[95].

وقال ابن كثير: أكرمهم الله تعالى بردّ السلام عليهم، وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً، أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ في توبته بأن أتى بشروطها من التدارك والعزم على عدم العود أبداً، ورجع عما كان عليه، وأصلح العمل في المستقبل، فشأنه -سبحانه - وأمره مبالغ في المغفرة والرحمة له وهو غَفُورٌ رَّحِيمٌ[96].

وآية النحل تؤكد ما سبق إذ يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[97].

وقال الثعالبي: هذه آية تأنيس لجميع العالم؛ فهي تتناول كلّ كافر وعاصٍ تابَ من سوء حاله، بعد ما تَعَدَّى الطَّوْر ورَكِب الرأس، وقلّما يوجَدُ في العصاة مَنْ لم يتقدَّم له علْم بُحَظْر المعصية التي يُوَاقِع[98].

وهكذا تفيد كل الآيات المكية بأن التوبة من العبد تصدر بعد مقارفة الذنب وارتكاب المعصية، أو الابتعاد عن منهج الله تعالى وطريقه الواضحة، وتبين انحرافه أو ضلاله أو وقوعه في الخطور. والوقت نفسه تحدده الآية المدنية إلا أنها تضيف قوله (من قريب) في قوله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما﴾[99]

أي التوبة للذين يعملون السوء . ويرتكبون المعاصي صغيرة كانت أو كبيرة، بجهالة وسفه بارتكاب ما لا يليق بالعاقل. ثم بعد ذلك يتوبون من زمان قريب وهو ما قبل حضور الموت[100].

إذا وضح بهذا وقت التوبة، وأنها تكون بعد ارتكاب المعصية، وبعد الوقوع في الخطور، أو الانحراف عن الطريق السوي. ففيه الدلالة إلى أن الذي يتوب هو من صدرت منه هذه المخالفات، وزل ووقع في الخطأ.

وقال الطبري: ثم يتوبون قبل مماتهم في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب السحشرجة وغمّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة، لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندم على ما سلف منه، وعزم فيه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة، فأما إذا كان بكرب الموت مشغولاً، وبغمّ السحشرجة مغمورا، فلا إخاله إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبا، ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة ما لم يغرغر العبد بنفسه، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقل الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعة من شروده عن ربه إلى طاعته كان إن شاء الله ممن دخل في وعد الله الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم من قريب [101] وفي الحديث عن النبي ﷺ "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" [102].

قبول الله تعالى توبة عباده

وُصف الباري – جل وعلا – بأنه ﴿قابل التوب﴾[103] أي يقبل التوبة ممن تاب إليه وخضع لديه ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾[104]

والله تعالى الذي يقبل مراجعة العبد إذا رجع إلى توحيد الله وطاعته من بعد كفره ويعفُوا عن السَّيِّئات. ويعفو أن يعاقبه على سيئاته من الأعمال، وهي معاصيه التي تاب منها[105]. وهو يمن على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه. ومن كرمه وحلمه أن يعفو ويصفح ويستر ويغفر. كقوله عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[106] وقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك ــ أخطأ من شدة الفرح[107]

وقال عبد الرزاق[108] عن معمر[109] عن الزهري[110] في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش"[111].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾[112] فأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه (وأن الله هو التواب الرحيم) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[113] أي إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ المنيبين من الإدبار عن الله وعن طاعته إليه وإلى طاعته[114]. ومما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض الذنوب[115] والله – سبحانه وتعالى – علم صدور الإساءة من الانسان، فأمره بالتوبة وحضه عليها، ثم وعده بقبول توبته، وتجاوزه عنه مهما كانت ذنوبه، ما لم يكن شركا به ﴿إن لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾[116].

ثمرات التوبة وفوائدها

ما أحسن ما يعمله الإنسان الخطّاء بالليل والنهار، أن يتوب ويؤب إلى ربه الكريم التواب، الذي وعده بالعطايا الجزيل، والثواب الوفير، والتجاوز عن السيئات، وقد وردت الآيات الواضحات ببيان ثمرات التوبة ونتائجها في الدنيا والآخرة.

فمن ثمراتها: الفلاح في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لعلكم تفلحون﴾[117]

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وارجعوا أيها المؤمنون إلى طاعة الله فيما آمركم وناهاكم، من غضّ البصر وحفظ الفرج وترك دخول بيوت غير بيوتكم من غير استئذان ولا تسليم، وغير ذلك من أمره ونهيه. لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ يقول: لتفلحوا وتدركوا طلبتكم لديه، إذا أنتم أطعتموه فيما آمركم وناهاكم[118].

وقال الألوسي: أي لكي تفوزوا بذلك بسعادة الدارين[119].

ومن ثمراتها: التمتع بالمتاع الحسن: قال الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[120]

قال القرطبي: هذه ثمرة الاستغفار والتوبة، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش[121].

وقال الطبري: يقول - تعالى ذكره - للمشركين الذين خاطبهم بهذه الآيات: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا ورزقكم من زينتها، وأنسأ لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت[122].

وقال النسفي: يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية من عيشة واسعة ونعمة متتابعة إلى أن يتوفاكم[123].

ومن ثمراتها: قبول العمل الحسن، والتجاوز عن السيئات: قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[124]

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه الصفة صفتهم، هم الذين يُتقبل عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالحات الأعمال، فيجازيهم به، ويثيبهم عليه ويتجاوزُ عنْ سيّئاتهم يقول: ويصفح لهم عن سيئات أعمالهم التي عملوها في الدنيا، فلا يعاقبهم عليها في أصحاب الجنّة يقول: نفعل ذلك بهم فعلنا مثل ذلك في أصحاب الجنة وأهلها الذين هم أهلها[125].

ومن ثمراتها: تكفير السيئات ودخول الجنان:

قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[126]

قال ابن كثير: وعسى من الله موجبة[127].

وقال الطبري: وقوله: عسى ربُكُمْ ان يُكفّر عنْكُمْ سيّآتكُمْ يقول: عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم. ويُدْخلكُمْ جنّات تجري منْ تحتها الأنهارُ يقول: وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار يوْم لا يخْزي اللّهُ النّبيّ محمدا صلى الله عليه وسلم والّذين آمنُوا معهُ نُورُهُمْ يسْعى بين أيْديهمْ يقول: يسعى نورهم أمامهم وبأيمانهمْ يقول: وبأيمانهم كتابهم[128].

ومن ثمراتها: إبدال السيئات حسنات قال تعالى: ﴿إلاّ منْ تاب وآمن وعمل عملاً صالحا فأولئك يُبدّلُ اللّهُ سيّئاتهمْ حسنات﴾[129]

قال الطبري: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدّل الله بقبائح أعمالهم في الشرك، محاسن الأعمال في الإسلام. فيبدله بالشرك إيمانا. وبقبيل أهل الشرك بالله قبيل أهل الإيمان به. وبالزنا عفة وإحصانا.

قال ابن عباس. قوله: فأولئك يُبدّلُ اللّهُ سيّئاتهمْ حسنات قال: هم المؤمنون كانوا قبل إيمانهم على السيئات. فرغب الله بهم عن ذلك. فحوّلهم إلى الحسنات. وأبدلهم مكان السيئات حسنات. وقال أيضا: هم الذي يتوبون فيعملون بالطاعة. فيبدّل الله سيئاتهم حسنات حين يتوبون.

وقال آخرون بل معنى ذلك فأولئك يبدل الله سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

قال أبو جعفر وأولى التأويلين بالصواب في ذلك: تأويل من تأوله. فأولئك يبدل الله سيئاتهم. أعمالهم في الشرك حسنات في الإسلام. بتقلبهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى. وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية. لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القبح. وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه. إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى. فيجب إن فعل ذلك كذلك. أن يصير شرك الكافر الذي كان شركا في الكفر بعينه. إيمانا يوم القيامة بالإسلام. ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة. وذلك ما لا يقوله ذو حجا[130].

ومن ثمراتها: الإمداد بالمطر:

قال تعالى عن هود – عليه الصلاة والسلام – ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[131].

قال الطبري: فإنكم إن آمنتم بالله وتبتم من كفركم به، أرسل قطْر السماء عليكم يُدرّ لكم العيث في وقت حاجتكم إليه، وتحيا بلادكم من الجدب والقحط[132].

عاقبة الذين لم يتوبوا

ذكر الله – عز وجل – عاقبة الذين لم يتوبوا في حكايتين في آيتين، إحداهما مكية وأخراهما مدنية. فالحكاية التي وردت في الآية المكية، قصة أصحاب الأخدود، الذين أحرقوا المؤمنين ولم يتوبوا من فعلتهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾[133].

قال ابن كثير: (إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) أي حرقوا (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟) ولم يقلعوا عما فعلوا ويندموا على ما أسلفوا (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ) وذلك أن الجزاء من جنس العمل[134]. وقال الطبري: فلهُمْ عذابُ جهنّم في الآخرة ولهُمْ عذابُ الْحريق في الدنيا[135].

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[136] فكأنه قال: إن تبتم عفوت عنكم، وإن لم تتوبوا فلكم عذاب الحريق.

والحكاية التي وردت في الآية المدنية بعد أن نهى الله المؤمنين من بعض رذائل الأعمال، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[137] يقول تعالى ذكره: ومن لم يتب من نبزه أخاه بما نهى الله عن نبزه به من الألقاب، أو لمزه إياه، أو سخريته منه، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها عقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه. وكان ابن زيد يقول في قوله ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال: ومن لم يتب من ذلك الفسوق فأولئك هم الظالمون[138].

وقال الطبري: في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[139] يقول تعالى ذكره: وإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله وترك عبادة الآلهة وامتنعوا من الاستغفار لله والتوبة إليه فأدبروا مولين عن ذلك، فإني أيها القوم أخاف عليكم

عذاب يوم كبير شأنه عظيم هوله. وذلك يوم تُجزى كُلُّ نفس بما كسبتْ وهُمْ لا يُظْلَمُون [140]

وقال الألوسي: (وإن تولّوا) أي تستمروا على الاعراض عما ألقي إليكم من التوحيد والاستغفار والتوبة [141] ﴿فإني أخافُ عليكُمْ عذاب يوْم كبير﴾ لكن إن استغفرتم وتبتم فستكون العاقبة غير ذلك.

الذين لا تقبل توبتهم

لقد حدد الله سبحانه وتعالى الوقت لإحداث التوبة وفسح المجال للعبد. ووقت لها ميقاتا يفهم من توبته الرجوع عن كل ما اقترفه بكل صدق وواقعية. وبين لها ميعادا نهائيا إن تعداه لاينفعه توبته ولا رجوعه إن جاء ليتوب. فهيهات ولات ساعة مندم. يقول الله تعالى ﴿وليْست التّوْبةُ للّذين يعْملُون السّيّئات حتّىٰ إذا حضر أحدهُمُ الْموْتُ قال إنّي تُبْتُ الآن ولا الّذين يمُوتُون وهُمْ كُفّارٌ أُولٰئك أعْتدْنا لهُمْ عذابا أليما﴾[142].

أي: وليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله. حتى إذا حضر أحدهم الموت. وحشرج أحدهم بنفسه. وعاين ملائكة ربه. قد أقبلوا إليه لقبض روحه. وقد غلب على نفسه. وحيل بينه وبين فهمه بشغله بكرب حشرجته وغرغرته. وشاهد الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال وعاين ملك الموت وانقطع حبل الرجاء. قال: إني تبت الآن. في هذا الوقت الحاضر. يقول الله تبارك وتعالى: فليس له توبة. لأنه قال ما قال في غير حال توبة. كما: حدثنا الحسن بن يحيى. قال: أخبرنا عبد الرزاق. قال: أخبرنا الثوري. عن يعلى بن نعمان. قال: أخبرني من سمع ابن عمر يقول: التوبة مبسوطة ما لم يُسَقْ. ثم قرأ ابن عمر: ﴿وليْست التّوْبةُ للّذين يعْملُون السّيّئات حتّىٰ إذا حضر أحدهُمُ الْموْتُ قال إنّي تُبْتُ الآن﴾ ثم قال: وهل الحضور إلا السَّوْق.

وإيثار (قال) على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبة. ولو أكده ورغب فيه، ولعل سبب ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة بل هي أول منزل من منازلها. والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله (لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) فأولى الأقوال بالصواب ما ذكره الثوري أنه بلغه أنه في الإسلام. وذلك أن الله جلّ ثناؤه فرق بين أسمائهم وصفاتهم بأن سمى أحد الصنفين كافرا. ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل سيئات. ولم يسمهم كفارا ما دلّ على افتراق معانيهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

عطف على الموصول قبله أي ليس قبول التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء. والمراد من ذكر هؤلاء مع أنه لا توبة لهم رأساً المبالغة في عدم قبول توبة المسوّفين والإيذان بأن وجودها كالعدم. (أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) يقول: هؤلاء الذين يموتون وهم كفار. أعتدنا لهم عذابا أليما. لأنهم أبعدهم من التوبة كونهم على الكفر[143]

وأكد الله تعالى عدم قبول توبة الكافر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾[144]

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية. قول من قال: عنى بها اليهود. وأن يكون تأويله: إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مبعثه بعد إيمانهم به قبل مبعثه. ثم ازدادوا كفرا بما أصابوا من الذنوب في كفرهم ومقامهم على ضلالتهم. لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم. ويراجعوا التوبة منه بتصديق ما جاء به من عند الله.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب. لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت. فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها إذ كانت في سياق واحد. وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر ما أصابوا في كفرهم من المعاصي. لأنه جلّ ثناؤه قال: (لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) فكان معلوما أن معنى قوله: (لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ) إنما هو معنيّ به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم. لا من كفرهم. لأن الله – تعالى ذكره – وعد أن يقبل التوبة من عباده. فقال: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ) فمحال أن يقول عزّ وجلّ أقبل، ولا أقبل في شيء واحد. وإذ كان ذلك كذلك. وكان من حكم الله في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب. وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها

بقوله: (إلاَّ ٱلَّذين تابوا وأصلحوا من بعد ذلك فإنَّ ٱللَّه غفورٌ رَّحيمٌ) علم أن المعنى الذي لا تقبل التوبة منه. غير المعنى الذي تقبل التوبة منه. وإذ كان ذلك كذلك. فالذي لا تقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد الكفر. لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره. لأن الله لا يقبل من مشرك عملاً ما أقام على شركه وضلاله. فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح. فإن الله كما وصف به نفسه. غفور رحيم [145]

إذا.. الذين لا تقبل توبتهم: من تاب من عمل السيئات حين حضور الموت. والكفرة الذين ماتوا على كفرهم. والعياذ بالله تعالى. فهم مطرودون من رحمة الله تعالى لأنهم لم ينتفعوا من أوقاتهم في الحياة الدنيا التي أفسح هم المجال وأمهلهم الله تعالى يتمتعون فيها بعقولهم وجوارحهم.

الخاتمة:

الحمد لله الكريم التواب . حذر عباده من أليم العقاب. يصفح ويتجاوز عمن تاب وأناب. والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبد الله البشير النذير. صلاة دائمة متصلة ما تعاقب الليل والنهار. ومن سار على هديه إلى يوم المعاد.

وبعد: فهذه صفحات معدودات. خلاصة دراسة وافية. ونتيجة غوص في معاني ما تدل عليه آيات القرآن الكريم المتعلقة بالتوبة.

والتوبة النصوح حينما يصدر من العبد بتوفية شرائطها يكون علاجا روحيا وتهذيبا نفسيا. ونقلة اجتماعية. من الانحراف إلى الاعتدال. ومن المعاصي إلى الإكثار من الحسنات. ومن الظلم إلى العدل.

وكان من نتائج هذا البحث:

أن القرآن الكريم يأمر عباد الرحمن بالتوبة. ويحضهم عليها. كما يثني على التائبين الراجعين إلى عفو الله ورضوانه. وهو يتقبل منهم توبتهم.

أن حملة العرش ومن حوله يدعون للتائبين بالمغفرة ودخول الجنان. وصلاح الأهل والذرية.

أن كثيرا من الأنبياء الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – دعوا أممهم إلى التوبة.

أن القرآن الكريم حدد وقت التوبة، ومن الذي يتوب، ومتى يتوب.

بين القرآن الكريم ثمرات التوبة وفوائدها.

بين القرآن الكريم عاقبة الذين لم يتوبوا.

بين القرآن الكريم الأصناف الذين لا تقبل توبتهم.

هذا.. وصلى الله على سيدنا ونبينا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. والحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث.

---

[1] سورة البقرة آية رقم 37.

[2] سورة البقرة آية رقم 160.

[3] انظر الآية رقم (10).

[4] سورة النصر آية رقم 3.

[5] سورة النساء آية رقم 64.

[6] سورة الحجرات الآيتان رقم 11-12.

[7] انظر سورة البقرة الآية رقم 54.

[8] سورة البقرة آية رقم 128.

[9] سورة الأحقاف آية رقم 15.

[10] سورة الأحقاف آية رقم 16.

[11] رواه الإمام أحمد في مسنده، 3/198، والترمذي في سننه في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة،4/273، ورواه ابن ماجة في سننه، في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، 2/1420، ورواه الحاكم وقال: حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه، المستدرك 4/272، قلت: في إسناده علي بن مسعدة، وهاه بعض النقاد، ووثقه آخرون، لكن أورد الحديث ابن حجر في بلوغ المرام، وقال: سنده قوي، سبل السلام 4/179.

[12] المصدر السابق للصنعاني.

[13] رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة 4/2106.

[14] انظر معجم مقاييس اللغة 1/357.

[15] لسان العرب مادة (توب) 1/454.

[16] المفردات في غريب القرآن 76.

[17] انظر تفسير الطبري 4/302.

[18] سورة الأحزاب آية رقم 72.

[19] لسان العرب مادة (توب) 454.

[20] سورة النساء آية رقم 24.

[21] انظر تفسير السمعاني 1/217.

[22] سورة التوبة آية رقم 117.

[23] انظر تفسير الطبري 11/54.

[24] سورة التوبة آية رقم 118.

[25] انظر تفسير البيضاوي 3/178.

[26] سورة المائدة آية رقم 71.

[27] انظر تفسير الطبري 6/312.

[28] سورة التوبة آية رقم 27.

[29] انظر تفسير الطبري 10/104

[30] ذكر المعين الطبري في تفسيره لقوله تعالى (فتلقى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنّه هو التوّابُ الرّحيمُ) وابن منظور في لسان العرب مادة (توب).

[31] سورة الشورى آية رقم (25).

[32] لسان العرب مادة (توب) 454.

[33] سورة البقرة آية رقم 54.

[34] انظر تفسير الطبري 1/288.

[35] سورة المائدة آية رقم 39.

[36] انظر تفسير الطبري 6/230.

[37] تفسير الطبري 1/246.

[38] انظر لسان العرب مادة (توب) 1/454.

[39] سورة الأعراف آية رقم 144.

[40] انظر تفسير الألوسي 9/44.

[41] انظر تفسير الطبري 9/55.

[42] سورة الأحقاف آية رقم 15.

[43] انظر تفسير الطبري 26/17.

[44] هذا لفظ أبي داود أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره. إلا أن ابن مسعود قال: وكان يعلمنا كتاب ولم يكن يعلمهن كما يعلمنا التشهد. سنن أبي داود ـ باب التشهد 1 254. وأخاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وله شاهد من حديث ابن جريج عن جامع 1 397. قلت: ورواة اسناد أبي داود كلهم ثقات. إلا شريك بن عبد الله النخعي. قال فيه ابن حجر صدوق اخطأ. ولعل الحاكم يقصد بالشاهد متابعة ابن جريج لشريك. فيكون الاسناد حسنا لغيره. والله اعلم.

[45] انظر تفسير ابن كثير 4 158-159. والآية من سورة الأحقاف رقم 16.

[46] سورة هود آية رقم 3.

[47] انظر تفسير الطبري 11 181

[48] سورة النور آية رقم 31.

[49] انظر تفسير القرطبي 12 238

[50] انظر تفسير الآلوسي 18 146-147.

[51] انظر تفسير الثعالبي 4 316

[52] انظر تفسير القرطبي 18 197

[53] سورة المجادلة آية رقم 8.

[54] فتح القدير 5 252. وانظر زاد المسير 9 313

[55] انظر تفسير الطبري 28 167

[56] التحرير والتنوير 28 367

[57] سورة المائدة آية رقم 74.

[58] سورة المائدة آية رقم 91

[59] انظر تفسير البغوي 2 54. وزاد المسير 2 403

[60] انظر تفسير ابن كثير 2 82.

[61] تفسير الآلوسي 6 208.

[62] سورة الفرقان آية رقم 71.

[63] انظر تفسير الآلوسي 19 50-51.

[64] سورة المجادلة آية رقم 4

[65] انظر تفسير القرطبي 18 188

[66] سورة الفرقان آية رقم 70.

[67] انظر تفسير البيضاوي 4 288

[68] سورة التوبة آية رقم 112.

[69] انظر تفسير ابن كثير 2 393

[70] انظر تفسير القرطبي 8 269

[71] سورة النحوم آية رقم 5.

[72] انظر تفسير الطبري 28 164

[73] انظر تفسير القرطبي 18 193

[74] سورة الفرقان آية رقم 71.

[75] انظر تفسير البيضاوي 4 228-229

[76] سورة المؤمن الآيات رقم 7 . 8 . 9.

[77] هكذا أورده الحافظ ابن كثير تعقبا. ولفظه عند الامام مسلم إن دعا لأخيه بظهر الغيب قال الملك الموكل به آمين. ولك بمثل) صحيح مسلم. كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار. باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب 4 2094

ورواه ابن ماجة تعقبا. في كتاب المناسك. باب فضل دعاء الحاج 2 966

[78] سورة الطور آية رقم 21.

[79] انظر تفسير ابن كثير 4 72 و 73. وتفسير النسفي 4 67

[80] سورة يوسف آية رقم 111

[81] انظر تفسير ابن كثير 2 499

[82] سورة هود آية رقم 52.

[83] سورة نوح الآيات رقم 3-4

[84] انظر تفسير الطبري 12 57-58

[85] سورة هود آية رقم 61

[86] انظر تفسير الطبري 12 62-63

[87] سورة هود آية رقم 90.

[88] انظر تفسير الطبري 12 104-105.

[89] سورة البقرة آية رقم 53.

[90] انظر تفسير الطبري 1 285-288

[91] انظر بصائر ذوي التمييز 1 98-99

[92] سورة الأعراف آية رقم 153

[93] انظر تفسير الطبري 9/70-71.

[94] سورة الأنعام آية رقم 54.

[95] انظر تفسير الطبري 7/208.

[96] انظر تفسير ابن كثير 2/136-137.

[97] سورة النحل آية رقم 119.

[98] انظر تفسير الثعالبي 2/325-326.

[99] سورة النساء آية رقم 17.

[100] انظر تفسير الألوسي 4/238.

[101] انظر تفسير الطبري 4/302.

[102] رواه الترمذي في سننه 5/507. في باب فضل التوبة والاستغفار، وقال: حديث حسن غريب. ورواه الإمام أحمد في مسنده، 2/132. وابن ماجة في سننه في كتاب الزهد. باب ذكر التوبة. 2/1420. والحاكم في المستدرك 4/286. وبغرغر: بغينين معجمتين. الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة، وبراء مكررة، معناه: ما لم تبلغ روحه حلقومه. فيكون بمنزلة الشيء الذي= =يغرغر به المريض. والغرغرة: أن يجعل المشروب في الفم ويردد إلى أصل الحلق ولا يبلع. النهاية 3/360.

[103] سورة المؤمن آية رقم 3 من قوله تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ...)

[104] سورة الشورى آية رقم 52.

[105] انظر تفسير الطبري

[106] سورة النساء آية رقم 110.

[107] رواه مسلم في صحيحه . في كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها. 4/2104-2105

[108] هو: ابن محمد بن نافع الحميري مولاهم، أبو بكر الصنعاني. ثقة حافظ مصنف، شهير عمي في آخر عمره، مات سنة إحدى عشرة ومائتين. وله خمس وثمانون سنة. (ع) التقريب 354.

[109] هو: ابن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن. ثقة ثبت فاضل. مات سنة أربع وخمسين ومائة، وهو ابن ثمان وخمسين. (ع) التقريب 541

[110] هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي الزهري، أبو بكر. الفقيه الحافظ، متفق على جلالته وإتقانه، مات سنة خمس وعشرين ومائة. وقيل قبل ذلك بسنة أو سنتين (ع) التقريب 506.

[111] راجع تفسير ابن كثير 4 115-116. ورواية عبد الرزاق في تفسيره. 2 191. والحديث في صحيح مسلم. ولفظه: (لله أشد فرحا بتوبة أحدكم. من أحدكم بضالته إذا وجدها) صحيح مسلم 4 2102.

[112] سورة التوبة آية رقم 104.

[113] سورة البقرة آية رقم 233.

[114] انظر تفسير الطبري 2 391.

[115] انظر تفسير الآلوسي 2 124.

[116] سورة النساء آية رقم 48.

[117] سورة النور آية رقم 31.

[118] انظر تفسير الطبري 18 125.

[119] انظر تفسير الآلوسي 18 147.

[120] سورة هود آية رقم 3.

[121] انظر تفسير القرطبي 9 4.

[122] انظر تفسير الطبري 11 181.

[123] انظر تفسير السمعي 2 145-146.

[124] سور الأحقاف آية رقم 16.

[125] انظر تفسير الطبري 26 17-18.

[126] سور التحريم آية رقم 8.

[127] تفسير ابن كثير 4 393.

[128] انظر تفسير الطبري 28 168.

[129] سورة الفرقان آية رقم 70.

[130] انظر تفسير الطبري 19 46-48.

[131] سورة هود آية رقم 53.

[132] تفسير الطبري 12 58.

[133] سورة البروج آية رقم 10.

[134] انظر تفسير ابن كثير 4 497.

[135] تفسير الطبري 30 137.

[136] أورده ابن كثير في تفسيره.

[137] سورة الحجرات آية رقم 11.

[138] انظر تفسير الطبري 26/134.

[139] سورة هود آية رقم 3.

[140] انظر تفسير الطبري 11/182

[141] انظر تفسير الآلوسي 11/208.

[142] سورة النساء آية رقم 18.

[143] انظر تفسير الطبري 4/302-304. وتفسير الآلوسي 4/239-240.

[144] سورة آل عمران آية رقم 90

[145] انظر تفسير الطبري 3/342-345.